نزهات فى الخريف

للكاتب الفرنسى جوستاف دروز

ترجمة السيد حسين رفعت

اطّلعت على الخريف فى حقوله الوسيعة ، وعواصفه المريعة وتنهداته الذاهبة فى الفضاء ، وأوراقه الذابلة الصفراء ، وهى تترنح بين أنفاس الجو ونسمات الريح ؟ ؟

أعرفت مخارفه المبتلة ، وشمسه المتلة ، وأشعتها الواهنة ، الواهنة فى مثل بسمة العليل وضحكة المضنى ؟

أبصرت بضحضاحه الراكد ومائه الراقد فى جنبات الطريق ؟ أعرفت كل هذا ؟

إن كنت علمته فأنت غير خال من التعصب له ، أو التحامل عليه ، كما أحبه بعضهم فجنوا به ، وكرهه آخرون فتطوعوا لسبه . أما أنا — علم الله — فهو أثير عندى ، حبيب الىّ . فالخريف واحد أمكن عندى من صيفين وأجل . فأنا أهيم بقطع اللهب الكبيرة ، وأستريح بعقربة الدفأة المتواضعة ، وكلبى ممدد ساكن بين دزلكى المبلل الرطب ، ومقعدى الدافئ الوثير

وكم يحلو لك التأمل فى سعير اللهب المضطرب ، يلمق بألسنته الدقيقة قطع الحديد العتيقة ، ويضىء الظلمات النائية البعيدة

وتسمع زفيف الريح فى أهراء القمح ، ويطرق أذنك صرير الأبواب ونباح الكلاب ، وقد تمردت على سلاسلها الحديدية ومقاودها المعدنية . وتميز برغم دوى الغابة الملاصقة وهى تزمجر بظهرها المقصوف صراخ الأغربة القاتم ، وهى تصارع العاصفة وتتنازل الرياح القاصفة

وتشاهد الوسمى يقرع ألواح الزجاج الصغيرة ، فتفكر فى هؤلاء الذين هم فى الخارج وأنت تمدد رجليك نحو المصطلى

أجل أنا جد مفتون بالخريف ، وصغيرى العزيز يهواه كما أهواه . وليس مظهر جماله ومبعث جلاله فى اجتماع العائلة حول الموقد ، ينعمون بدفئه المثير ، ولألائه الكثير ، وإنما له أيضاً من عواصفه الهوج ، ورياحه الداوية ، وأوراقه الذاوية ما يحبب الى النفس المجازفة بين هذه الأنواء الصاخبة ، وتلك الرياح الغاضبة

وكم من المرات ذهبنا كلانا نرود الحقول والمزارع ، بين سفعات القر ، وتلبدات السحب ، وقد أحسنا الكساء ، وأثقلنا الرداء ، ولبسنا أحذيتنا الضخمة المتينة ، فكنت أرتفق ساعده وآخذ عضده ، ثم نسير دون اتجاه معين ولا غرض مقصود

وكان حينئذ لم يتجاوز الخامسة من عمره ، ولكنه يحب فى مشيته خبب الرجال ؛ فكنا نأخذ الطريق الضيقة المفروشة بالأعشاب النضرة السوداء ، خلال أشجار الحور الرمادية التى كانت تسمح للعين بأن تخلص الى ما وراءها من الأفق ، وتخترق ما دونها الى بسمات البرق ، فتلمح فى قرارة البعد تحت السماء البنفسجية صفحة من العصائب الصفر الباردة ، وتشاهد سقوف الأكواخ المتهدمة ، ورؤوس المداخن المتداعية ، تتصاعد منها سحب رهوة فى زرقة لطيفة كأن الريح تطاردها بعنف وتصاعدها بقسوة

وكان طفلى الصغير يطفر من المرح وقد أمسك بيده قبعته حذراً من أن تطير ، وكان يحدجنى بعينيه الزرجاجتين تحت فيض الدامع وقد ضرج البرد وجنته ، وفى مؤخر أنفه لؤلؤة صافية قد أشرفت على السقوط ، وكأن على ما به فرحاً مسروراً . وكنا نقطع السهل الرطب وقد حفت جوانبه بنمير النهر العذب ، وزينت شواطئه بالقصب المتشابك ، وعرائس النيل المتلاحمة وزهور النهر المتنوعة

وكنا نشاهد قطعاناً من البقر وقد غاصت حتى أعالى سوقها بين الأعشاب السامقة ، وهى ترعى فى سكون واطمئنان ، وفى حفرة صغيرة عند جذور شجرة من الحور تجثم طفلتان متناظرتان فى جلستهما فى ظل معطف كبير ، وقد لفهما إليه وجذبهما عليه ؛ وهما ترعيان رعيلهما والرجلان نصف عاريتين فى الحذاء الممزق ، والوجهان المرتجفان قد برزا من واقية المطر

وكان يقتطع علينا سيرنا المجد — فى الفينة بعد الفينة — غدران واسعة قد عكست عليها صفحة السماء الخافقة ، فكنا نتريث برهة على ضفاف هذه البحيرات ، وقد داعبت صفحتها ريح الشمال ونشاهد الأوراق الطافية وهى تساقط من أعالى الأشجار ، وتسبح فى مهاوى الريح ، وتثوى على وجه المستنقع ، فأحمل طفلى الحبيب بين ذراعى وبجوز العدوة الأخرى فنشاهد فى أطراف الحقول السمراء الخاوية المحراث المقلوب ، والوتد المنصوب ، وعساليج الكروم المعراة قد امتدت على الأرض ، والحمائل الصلبة الرطبة قد تجمعت أكواماً ، وتكدست أقساماً

(حلب) حسين رفعت